حرية الرأى وأنصار الجمود

تصل إلى «المعرفة» رسائل متعددة ، وشكاوى متباينة ، ليس إلى جمعها فى نقطة واحدة من سبيل . فهذه الرسائل أو تلك الشكاوى بمعنى أصح ، لا تتفق فى مصدر الشكوى أو تلتئم فى الباعث عليها مطلقاً ، كما أن عقدها لا ينتظم بحال ما فى سمط واحد من التفكير .

على أن أشخاص مرسليها على تعددهم وتباينهم ، لا يعدو الواحد منهم أحد شخصين : شخص يتهمنا بالجمود فى الرأى ، والتعصب للدين ، والتمسك بالقديم : وليس لنا أن نناقش هؤلاء بعد أن كتبنا «كلمة المحرر» التى افتتحنا بها الجزء الأول من هذه المجلة ، وشرحنا بها كل الأغراض التى أسست لأجلها ؛ كما أنه ليس من حاجة أيضاً لمناقشتهم مرة ثانية ، بعد أن رأوا الأجزاء التى صدرت قبل هذا الجزء وعددها أربعة كفيل فى نظرنا — على مانعتقد — برد ما يوجه الينا من تهم الجمود ، والتعصب ، والتمسك بالقديم ، وما أظننى — بعد أن أفسح صدر المجلة لكل رأى مخالف لنا — بجامد أو متعصب كما يزعمون .

على أن المضحك فى الأمر حقاً ، هو أن تجد الى جانب هؤلاء فئة من الناس تتهمنا بالمغالاة فى الجديد وهذه يتزعمها بعض السوريين الدخلاء ، وآسف أن أقول السوريين الدخلاء ، لا السوريين الحقيقيين الذين أحبهم وأجلهم ، وأرى لمصرى مفروض فيه العمل لخدمة وطنه ، أن يعمل معهم ومع كل شرقى بقدر الطاقة ، وبقدر مايسعه جهده الضئيل فى سبيل «الرابطة الشرقية» و« الوحدة العربية » إذ بغيرهما معاً ، أو بغير احداهما على الأقل لا يتم لمصر ما ترجو من زعامة حقة ونهضة قوية .

أتعرف ماذا يقول هؤلاء الأناسى ؟ يزعم أولئك الدخلاء ، ومن لف لفهم من مواطنى المصريين ، فى غير حق ولا رحمة ، أن مجلة « المعرفة » تعمل دائبة على نشر الآراء الصوفية المتطرفة والبدع الدينية والأفكار الفلسفية الالحادية .

يا سبحان الله ؟ ألكم بعد هذا عقول تفهم حتى نستطيع مخاطبتكم ؟ إن كان ذلك ، ولا أظنه ، فلتعلموا إذن أنكم لا تؤثرون فى طفل صغير فضلا عن انسان مفكر ، فما بالكم والمجلة فى أيدى القراء المختلفى المشارب والآراء ؟ أهؤلاء أقل منكم فهماً وتدبراً ؟ ثقوا بأنكم تعلنون عن « المعرفة » أقوى إعلان ، فأكثروا أكثروا ، فأنا فى حاجة إلى شىء

من هذا ليس بالقليل ، وأنتم دهاقنة الزمن فى استلاب الأموال ، والتفنن فى الاعلان عما تعملون باسم الدين ظلماً ، ألا بارك الله فيكم تعملون على نشر مجلتنا ، ولا بارك الله فيكم تعملون على نشر الكذب والبهتان . على أنا لن نقيم لكم بعد الآن وزناً ، وبحسبنا أن نأخذ فيما نحن بصدده من البحث فى حرية الرأى ، لعلكم تتعظون .

فى طبيعة الانسان من يوم وجد رغبة وثابة إلى الأفضاء بما يختمر فى ذهنه من فكرة . هذه الفكرة ، هى عمل من عمل العقل الذى هو بصيص من نور الله محال أن تقف فى وجهها قوة من قوى الطبيعة على اختلاف درجاتها وتباين أنواعها .

قد تكون الفكرة مما تأباه أنظمة الدولة ، أو مما يخالف التقاليد الموروثة ، أو تباين العرف المتبع ، لكن ليس معنى هـذا أن الفكرة تقهر وتموت ، بل تحبس فى نفس صاحبها ، وتظل مضغوطا عليها تحت طبقات ذهنه ، تحاول الخروج آنا ، والانفلات آونة . حتى تجد لها منفذا ، ويجد صاحبها الفرصة صالحة لاعلانها ، فتنطلق انطلاق السهم .

هنا تعمل الفكرة عملها ، وتحتل من النفوس ملأتها ، ومن ثم تخلق من أصحاب تلك النفوس أنصارها ، يدافعون عنها ويستشهدون ـ ولو كانت خطأ ـ فى سبيلها . والزمن وحده هو الكفيل بالحكم على صلاحها أو عدمها ، وتقرير بقائها أو جودها . وذلك يخالف كل المخالفة الفكرة المباحة غير الصارخة ، فان نجاحها يتوقف على ما لقيمتها من صواب فحسب.

وغريب جداً أن نرى جل الفكر الثائرة ، وأعنى بها تلك المخالفة للعرف ، أو المغايرة للتقاليد يقدر لها البقاء وينقل أصحابها من سجل الفناء الى سجل الخلود .

دليلنا على ذلك ، ما نراه من الخلود الملازم للفكرة الدينية التى نستطيع أن نسمى أصحابها ودعاتها ـ بحق ـ ثوار الفكر قبل إعلان فكرتهم ـ قادته ـ بعد نجاح تلك الفكرة .

أليس الأنبياء (صلوات الله عليهم) كانوا ثوارا على تقاليد ذويهم وأممهم وهدامين لمعتقدات آليهم وأفكار بيئاتهم ، فلما أن تحققت ثوراتهم الفكرية ، وصحت دعاواهم الدينية ، صاروا قادة الفكر فى نظر العالم اجمع ؟؟؟ أو ليست هذه غاية الخلود ؟

أولئك الذين قدر لأسمائهم أن تسجل فى سجل الخلود على مر الحقب وتوالى العصر ، هم بأنفسهم الذين كانوا يرمون بالكفر آنا وبالزندقة آنا آخر ، وهم بأنفسهم من كانوا موضع اضطهاد مغايريهم بل واحتقار المجتمع كله لهم ، لا لشىء سوى ثورتهم على القديم . وها هم بأنفسهم الآن مصابيح النور الالهى .

لنخرج عن دائرة الأنبياء ولنستمع للتاريخ الذى يحدثنا عن كثير من الأفراد راحوا ضحية الحرية الفكرية . . . حيث أعدم من أعدم ، وأحرق من أحرق ، وعذب من عذب ، كل ذلك فى سبيل القضاء على فكرتهم التى أبت الاذعان والارتضاء بغير الزمن حكماً ، والذى أراد الزمن إلا إنصاف محتكميه على خصومهم فى أغلب الأحايين .

هذا سقراط الفيلسوف اليونانى العظيم ، قدم للمحاكمة أمام مجلس أثينا الأعلى بجريرة الخروج على الناموس ، ومخالفة التقاليد الوراثية ، ما كانت جريمته فى الحقيقة سوى بث تعاليمه الشريفة فى نفوس تلاميذه الاطهار ، كان نصيبه بسببها الحكم عليه بتجرع السم بين أولئك التلاميذ ، لكنه مات مرتاح الضمير هادئ النفس يدلك على ذلك قوله وهو يدافع عن نفسه أمام مجلس الاتهام .

« إن إنساناً بالغاً ما بلغ من القوة ، لا يستطيع بحال ما أن يملى إرادته على آخر أو يمنعه الايمان بما يعتقد والتفكير كما يود . إذا كان الانسان متمشياً مع منطق عقله مستمعاً لنداء ضميره فانه يستطيع أن يعيش فى عزلة منفردة فى غير حاجة الى رضاء الناس أو المجتمع ، ولن يصل الانسان لنتائج صحيحة مطلقاً ما لم يفحص المسائل ما لها وما عليها ، ولذا فانه يجب على الحكومة ألا تتدخل فى مناقشات الناس بعضهم مع بعض» .

تلك بعض أقوال سقراط التى أثرت فى نفوس أعضاء المجلس لدرجة أن ساوموه على الترضية بالتسوية بينه وبين مخالفيه اذا هو وعدهم ـ على الأقل ـ بالكف عن نشر تلك التعاليم . لكنه أبى إلا أن يكون حراً فقال :

« كلا . دعونى وضميرى الذى يناديني من أعماق نفسى، لأ لقن الناس طريق الحكمة والمعرفة الصحيحة ، وما دامت هذه هى بغية ضميرى ، فسأظل أعلم الناس مصرحاً بما فى نفسى دون أن أقيم وزناً لما يحدث »

وهاك مثلا آخر . فهذا جاليليه العالم الايطالى الفلكى الذى أخرج كتاباً يشرح فيه نظرية حركة الارض حول الشمس ، فانه قدم بسبب ذلك الكتاب الى مجلس الكنيسة الاعلى متهماً من الكرادلة بالهرطقة (أى الكفر) وكانت نتيجة محاكمته أن اضطره المجلس إلى الاعتراف بالخطأ أمام الكنيسة وعلى ملأ من تلاميذه وأتباعه ، لكنه ما لبث أن خرج من الكنيسة حتى قال « ولكن الأرض تدور » فكان

أن قبضوا عليه فى الحال ، وزجوا به فى السجن (برواية بعض المؤرخين) ، وأحرقت جثته (برواية آخرين).

لكن هل هذا السم الذى تجرعه سقراط ، أو ذلك العقاب الذى نزل بغاليليه أمات الفكرة أومنع انتشارها ، أوحرم كليهما شرف الخلود ؟ كلا ، لقد كان ذلك الاضطهاد سبباً لاستشهاد الكثيرين فى سبيل الدفاع عن الفكرة ، حتى أصبحنا نرى تعاليم سقراط تعلم فى أكبر الجامعات ، وكذلك قل عن تعاليم غاليليه التى أصبح رجال الدين أنفسهم - يتخذون منها ومن كلمته (ولكن الأرض تدور) رداً على مخالفيهم . أليس هذا هوالخلود بعينه ؟

لست أريد من كل ما تقدم ، سوى القول بأن خير حكم يفصل فى فكرة ما إنما هو الزمن وحده ، وإذن فالفكرة لاتموت بموت صاحبها ، بل ثمة من يقوم بعده لنصرتها فاذا مااستشهد فى سبيلها قام آخر ، وثمة آخرون وهكذا .

وبذلك تظل الفكرة حية نامية يساعدها مبدؤها المكفول لها بما فى الانسان من نزعة التوثب الى الحق . ولا تستطيع قوة ما — بالغة ما بلغت — أن تقضى بالجمود عليها بل إن سنن الكون لتجتاح تلك القوة اجتياحاً ، وتأتى عليها حتى لا تبقى ولا تذر ، متمشية مع سنة التطور بخطوات سريعة متزنة ، ولذلك فانها تسخر أمثال أولئك القادة ليرفعوا صوت الحق قائدين أممهم الى طريق الصواب ومخلصيهم من بين براثن الجهل والانحطاط والتقهقر .

وفى المثلين السابقين — ومن أمثالهما كثير — دلالة واضحة على صدق ما نقول ، ولكنا نريد أن ننبه القارئ الى أن هذا الاضطهاد كان يحدث فى العصور المظلمة ، التى كانت الكلمة الواحدة فيها ، كافية لأزهاق أرواح الآلاف بله الملايين .

أما الآن وقد سار الزمن الى الرقي ، فقد أصبحنا نرى الرجل — وعلى الأخص فى الأمم المتحضرة - يقول قالته وهو محقون الدم ، آمن على نفسه وعياله ، مرتاح الى مخالفيه فى الرأى ومباينيه فى المعتقد . وها نحن نرى الآن اعترافاً بقدسية العقل ، وإطلاقاً للحرية بلا قيد ولا شرط ، حتى لتكاد تنقلب فى بعض الأحايين الى غير ما وضعت له .

ولست بهذا أدعو إلى إطلاق الحرية بلا قيد ولا شرط ، بل لست أطمع فى هذه الحرية بلا قيد ولا شرط ، وإنما أريد أقل من هذه بكثير جداً ، أريد كما يريد كل مخلص لدينه

ووطنه ـ أن تكون حرية البحث العلمى ، مما لا تسبب لصاحب البحث رمى فئة من الناس له بالكفر والزندقة ، ودیننا يأمرنا باتباع العقل وتأويل النقل على مقتضاه إذاما تعارض العقل والشرع .

نريد ألا يستغل نفر من الناس حداثة فكرة من الفكر ، أو يستثمر جدة بحث من البحوث ، لقضاء أغراض ذاتية ، تمليهاعليهم رؤوس تدور مع الريح أينما تهب .

نريد ألا تعتدى طائفة من الناس تفرض ولايتها على الدين ظلماً . وأقول طائفة ، بل طائفة صغيرة جداً ، فان اكثر علمائنا ولله الحمد ذوو حكمة وتدبير ، وأصحاب عقول راجحة التفكير . وانما أقصد نفراً قليلا لابد من وجوده ، ليميز الصالح من الطالح ، ويعرف الطيب من الخبيث ، فبضدها تتميز الاشياء .

وأقصد طائفة أخرى ، تلك طائفة المتمشيخين من المتصوفة (لا الصوفية) وهؤلاء لا يقلون عن أولاء جرماً ونكراً ، ونحن نريد أن لاتريدانا على أن نفكر بعقولهم هم لا بعقولنا نحن ، ونأخذ بظنون أوهامهم ، والله تعالى يقول وقوله الحق « إن يتبعون إلا الظن وان هم الا يخرصون» والله جل شأنه يكرر لنا المعنى فى آية أخرى من محكم آيه فيقول : (وما يتبع اكثرهم إلا ظناً ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً) .

نريد ألا تعتدى هاتان الطائفتان على أسمى المظاهر الانسانية ، أو يجترحا أقدس الكائنات الالهية ، وأعنى به العقل الذى ميزنا به صاحب العقل المطلق على جميع مخلوقاته ، والذى به وحده نحاسب ، وعلى قدر تميزه بين الحق والضلال نثاب أو نعاقب .

نريد أن نسير إلى الأمام بخطى سريعة متزنة ثابتة ، وأن نستيقظ من هذا السبات الطويل الذى كاد يكون اغماء ، ونصحو من هذا النوم الثقيل الذى قارب أن يكون موتاً زؤاماً ، ونمسح من أعيننا ذلك النعاس العميق ، لننظر ما احتواه ذلك العالم الجديد ، ولنحذو حذو هاتيك الأمم التى بدلت الأرض غير الأرض ، وركبت متن السماء بطائرات الهواء ، حتى لكأنها تبحث عن فضاء أوسع من هذا الفضاء .

نريد أن نسابق الغربيين الذين أخضعوا العالم ، وأنطقوا الجمادات ، واستولوا على قوى الطبيعة ، فقربوا بين الماء والنار وولدوهما البخار والكهرباء .

ولن يكون هذا إلا بترك التخيل والتشهى ، والصدوف عن الترجى والتمنى ، لنعيدالروح

الى جسم هذه الأمة الاسلامية المتقطعة الأوصال ، التى نخرها سوس البدع والضلالات . ولنجدد فى جسمها غدد الحياة بامدادها بالدم النقى الصالح ، ولن يكون هذا إلا باجتثاث الخبيث من أوضاعها ؛ وإذن فلنتخلص من تلك الخرافات التى قضت أو كادت تقضى على الدين وأهله ، لولا كلمة من ربك ، ولننزع الأوهام من نفوسنا فلا ندع لها جانباً تحتله منا وتتسلط به علينا ، فنصبح أسراءها ، ونضحى بين الأمم أشلاءها .

فلنرجع الى أصول الدين الحقيقية التى تتفق والفطرة ، ولنعد الى أحضان الدين الذى يقول ربه « وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى »

ولندعُ أولئك المتمشيخين من فتى العلماء والمتصوفة إلى الحق ، فان قبلوا النصيحة فبها ونعمت ، وإن أبوا الا أن يظلوا منافقين مرائين مخادعين الناس ، فما هم بخادعين الله وما يخدعون الا أنفسهم ، ولن ينصرهم الله أو يأخذ بأيديهم ، ما داموا مضللين يرون المنكر يرتكب تحت أبصارهم وبين أسماعهم وهم منكمشون ، وفى جلودهم لا يتحركون .

رحم الله الشيخ محمداً عبده الذى لقى من بعضهم كل عنت واضطهاد ، والذى لم يكفهم غير رميه بالكفر والزندقة ، ثم عادوا الى صوابهم بعد موته ، فلقبوه بحق — الاستاذ الامام — وهو نفسه الذى وصفهم بقوله :

« أما ما نسمعه حولنا من سجن من قال بقول السلف ، فليس الحامل عليه التمسك بالدين ؛ فان حملة العمائم انما حركهم الحسد لا الغيرة . وأما صدور الامر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة والخوف من خروج فكر واحد عن حبس التقليد ، فتنتشر عدواه فيتنبه غافل آخر ويتبعه ثالث ، ثم ربما تسرى العدوى من الدين الى غير الدين — الى آخر ما يكون من حرية الفكر ، يعوذون بالله منها » .

وأخيراً لا أود أن أسترسل فى الاستشهاد وحسبى أن أقرر بأنه لم يكن ليقضى على الدين وأهله ، أو يكاد يقضى عليه سوى تلك الخرافات المنتشرة التى راجت بين عامة أتباعه . ولم يؤثر فيه غير هاتيك الأساطير التى أدخلها أعداؤه ، وما عسره وجعله بغيضاً الى بعض النفوس ، غير جمود بعض العلماء وأخذهم بالاسرائيليات وغرامهم بالمعقد من الشروحات ، ورميهم لكل مفكر بالزندقة والالحاد . فهل آن لنا أن نتيقظ ؟ وهل آن لهؤلاء الذين يحاربوننا أن يتعظوا ؟ علم ذلك عند ربى ؟

عبد العزيز الاسلامبولى